

نبوغ شبابنا بين عامل الكفاح والتشجيع للاستاذ صلاح الدين الشريف

أحسبك تذهب معي يا صديق ، الى أن شبابنا المصري موهوب بطبعه ، وأن الكثيرين من أفرادنا أظهروا نبوغهم الكامل عندما زاولوا أعمالا كبيرة كنا نحسبها وقفا على غيرنا من قبل ... ولكنهم أتقنوها إتقان من طال عليهم بها العهد ، فشقوا طريقهم الى النجاح ، بعد أن ملأت قلوبهم الثقة ، وآمنوا بمستقبلهم ، وجعلوا النجاح لهم ديننا وعادة .

ولكني أرى الى جانب هذا الفريق الناجح ، فريقا آخر فاشلا ، يلتوى به الغصد ، من رغبة الى رغبة ، ويتذبذب بين عمل وعمل . وما أسرع ما تخونه الثقة بالنفس ، حتى لتجمد ملكاته وتتطفئ جذوة حماسه ، ولما يبدأ المرحلة الأولى في حياته ، فهبل تراك محمدي عن سر هذا التفاوت بين الفريقين ، وتكشف لي عن سبب هذا الازدواج في وضع الصورة ، ومادتها على ما أحسب واحدة ألوانها ، لا نكران في انسجامها وتوازنها ؟

الواقع ، أنني أذهب معك ، الى أن شبابنا لا يعوزه النبوغ ، ولا تنقص ملكاته الكفائية ، وأنه من أجل هذا ، مستطيع أن يشق لنفسه ، طريقا سويا الى النجاح ... ولكن ألا تذهب معي الى أن النجاح ، حقيقة مركبة ، لها عناصرها ... ، أو قل ، أنه هدف موموق ، قد يقرب ويدنو ، وقد يبعد ويشط ، على حسب السبل الموصلة اليه ، ومدى حفظها من السهولة أو الصعوبة ؟ ...

اجل ، ان السبل موجودة . واختيار إحداها ، أو التفضيل بينها ... قد لا يبدو صعبا البتة . ولا سيما ، إذا درس الشاب ، حقيقة رغبته ، وقاس حدود طاقته ... ولكن مجرد تفضيل السبل الذي يقع عليه اختياره ، لا يكفيه ليواصل خلاله السير ، ويمد على طوله انحطو ... إذ ثمة أيضا ذلك الاكسير السحري ، الذي ينسبه متاعبه ، ويذيقه حلاوة كل خطوة يخطوها ، مقتربا من هدفه . وأعني به "روح التشجيع" ، الذي من حقه أن يلقاه في بيئته . فهو محك الكفائية ، ومقياس التجربة . وهو الذي يسوس أعصابه ويكيفها وفق ما يريده صاحبها ... وهو بعد ، الذي يسهل عليه مشاق العمل ، ويحقق له نجاحه ، ويدنيه بسهولة من مأموله ... ولكننا نتلفت ، لتجسس اثاره من هذه الروح الطيبة ، روح التشجيع ، فلا نفوز بباطل .

ولكم يحز في نفوسنا ، أن نرى جمهرة الشباب عندنا ، محرومة منها . فشبابنا ، منذ أن ينشأ في بيئة البيت ، الى أن يشب في محيط المدرسة ، الى أن تدب به الرجل ، بين وعور الحياة

في المجتمع ، لا يلقى أمامه التشجيع ولا يدوق له طعماً ! ... فهنا اعترفنا بهذا الوضع الشائه ، وعكفنا على فلسفة التشجيع هذه ندرسها ، لنحققها ، ونذيق أطفالنا وشبابنا حلاوتها وعذوبتها ! .

نعم . لا أستطيع أن أنكر هذا الذي اتهمت اليه . فيحن شباب هذا الجيل ، قد ذقناه واكتوينا به . ولكن ما لا أستطيع أن أقنع به ، هو أنك عزوت الى هذا العامل وحده ، كل السبب فيما يلقاه بعض شبابنا ، ولا سيما في محيط العمل الحر من قسلة وخيبة .

اننى يا صديق ، إذا فهمت أن عامل التشجيع ، عنصر لا بد منه ، في نجاح شباب الأعمال الحكومية مثلاً ، وهى التى يتعدد فيها الرؤساء ، ويكثر المشرفون على العمل ... أو قل ما يجرى مجرى هذه الأعمال في محيط العمل الحر ، كالشركات الكبرى ، والبيوت المالية المنظمة ، فاننى مع هذا لأرى وجهها ، لفهم هذا الأمر ، في غير هذا المجال من مجالات العمل الفسيحة الأخرى ، وهى التى يعتمد المرء فيها على نفسه ، ويكون يفكره وجهه ، ورأسه ، برنامج العمل ، ويحدد أهدافه ثم يمضى فى الحياة وحده ، لتحقيقه ، واجتاء ثمراته .

فيقبنى إذن . . . أن مثل هذا الشباب ، يعوزه أن يفهم معنى الكفاح ، وأن يشرب به روحه ، لأنه متى فهمه وأدركه ، شجع نفسه بنفسه ، وامتلأ ثقة ، بأنه لا بد فائز بأغراضه كلها أو بكثير منها على الأقل .

هذا الكفاح ، يقوم فى الواقع على مبدئين :

أولهما : أنه يجب أن نعتاد النجاح عادة ، فنبدأ مثلاً بالأعمال السهلة ، المتواضعة ، ولا نأنف منها أو نستنكرها . . . فلقد ولى زمان هذه النظرة البلهاء ، وانطوت صفحاتها . . . ثم نتدرج منها إلى الأعمال الأكثر صعوبة ، متى نجحنا فى الأولى . وهكذا ، تظل الثقة فى نفوسنا تتجمعنا وتؤنسنا بوحياها .

وثانى المبدئين : هو ألا نعمل عملاً نكرهه . لأننا عندئذ ، نقيم فى أنفسنا صراعاً بين الهوى وألواجب . . . هذا الصراع يستنفد بالطبع مقداراً كبيراً من قوة أعصابنا ، حتى أن جهد ساعة منه يقوم مقام الجهد الكامل . فتكون النتيجة أن نعيأ بالعمل البسيط ، ونصبح مهمومين مجهودين ، حتى ولو كنا فى فراغنا لا نجد ولا نعمل .

ولكن من ذا الذى يتكرأن الكفاح لا بد منه ! ؟ . إنما ذهبت يا صديق فيما قلته لك إلى أن هناك خطوة رئيسية قبل مرحلة الكفاح هذه . أو أن هناك دوراً تمهيدياً . وإذا شئت أن أصدقك الرأى قلت أن مبدئى هذا ، ليس خطوة أولى ، بل دوراً تمهيدياً . فحسب ، بل إنه بمثابة العنان الذى يوجه المرء فى كفاحه .

كيف بالله ، تخلق الرغبة أو الهوى ، وأنت محروم من الشهور بلذة ما تعمل ، معصوب العين عن المصير الذى تهدف بهملك نحوه .

إن مثل هذا الشاب الذي حرم الرغبة ، وسلب الغاية ، لكلاآلة تساق سوقا دون أن تدرك لعمليها وردا ولا صدرا ! . وإلا فكيف اعمرى تحفز الرغبة بغير التشجيع ! . أو كيف تشقى الغاية بغير هذا " الاكسير " ! ؟ .

لا زلت أؤكد أن عنصر الكفاح هو رأس مال النجاح في هذه الحياة التي تتطاحن فيها الملكات ، وتتعارك بين أمواجهها الكفاحيات . والكفاح بطبعه يتقاضى الشاب أن يؤمن بنفسه أولا حتى ولو عدم تشجيع الغير وأضحى منكور الحق في نصيبه العادل من هذه الحياة . يجب على الشاب ، في أي ميدان من ميادين العمل نزل إليه ، أن يتعلم جادا استقلال النفس حتى ولو لم يلقته في بيته ولا معهده ، وأن يعتاد الاعتداد على ذاته وحدها ، حتى ولو وجد الامر في بادئه شاقا وعسيرا .

فاذا قدر له أن يختار عملا ما ، ولو كان بعيدا عما درسه في المدرسة أو الجامعة ، فأول خطوة بخطوها ، هي أن يقف تماما على مدى رغبته ومقدار ميله إليه ، ثم يدقن غايته ويعين السبل المعقولة التي توصل إليها ، ويدأب على شرحها لنفسه في ثقة العارف المطمئن ، فان هذا أقمن أن يعينه على توضيح أفكاره وحث خطواته إلى ما يرجو ويطلب .

وبالطبع ، لا أنكر أن التشجيع حيثما وجد يعد حافزا من حوافز النجاح في كثير من الأعمال حتى تقارب حد الكمال ، فيكسب العمل ، ويكسب الشباب ، ويكسب المجتمع بمكسب الاثنين .

إذن اتفقنا ، وأحسب ألا وجه للتناقض فيما ذهب كلانا إليه ، فالتشجيع والكفاح عنصران أساسيان لنجاح الشباب في الحياة . وآخر ما يمكن أن أقوله في النجاح " هو أنك إذا رغبت في شيء تمام الرغبة ، وشجعت عليه التشجيع كله ، وكأخفت من أجله كفاح الرجولة المؤمنة بنفسها ، لم يعد هذا الشيء ، وإن بدا لأقل وهلة معجزا ، مستحيلا من المستحيلات ، فانك لا بد بهذا كله محقق رغبتك مؤكدا كفايتك " .

هذه نصيحة طيبة ، ونظرة الى أمور الحياة صائبة . وإذا كان لي أن أضيف شيئا إلى ما قلت ، فهو نصيحة أخرى ، تجدى هذا الشباب المنهوك القوى ، المتمتع الوجوه ، إذا حرص على وضعها نصب عينيه . هذه النصيحة هي أن لكل شاب طاقة ، لا يجعل به أن يعدوها ، وإلا أجهد جسمه واتفأ أعصابه وأثبت به الطريق دون غايته .

نعم إن في أعصابنا قوى مدخرة . ولكن حذار حذار من المساس بها ، إلا في الأزمات الشديدة التي تتقاضانا جهدا استثنائيا فانمस्क على تنبيهها وارتاقها ، حتى نجد منها بعد ذلك ذخيرة تعيننا على العمل اليومي وعلى الأمل المتجدد ، وعلى توسيع نطاق الأعمال عند التوفيق والنجاح . ويدخل في هذا أيضا حفظ الجسم من كل ما يفث فيه من معاول الرذائل المختلفة التي كثيرا ما يرنو إليها الشباب ، متفتح الجوارح ، ثم يعلم بعد أن تضنيه نهكة الجسم ، أنه فوط في شيء ان يعود وبدد كثر لا يرجع .

صلاح الدين الشريف